موقف الرافعي من دعاة العامية واللغات الأجنبية

في بدايات القرن العشرين حاول الاستعمار جر العرب إلى إقليمية بغيضة وذلك لتفتيت أوطان العرب، وتمزيق وحدتهم، وإبعادهم عن أصالتهم، وتراثهم فنجح في وضع تلك الحدود التي جعلت الوطن العربي دويلات صغيرة تتناحر فيما بينها، كل دويلة تحاول السطو على جارتها، لتقطع منها أجزاء تضمها إلى دويلتها، حدث ذلك في كثير من أجزاء الوطن العربي، وهي مشكلة قائمة حتى الآن.

وإمعانا من الاستعمار في إنهاء كل رابطة تربط هؤلاء العرب حاول نشر لغته في البلاد الواقعة تحت سيطرته، وسلطانه، ففرنسا تحاول فرض لغتها على المغرب العربي، وتحاول السيطرة على كل تراث الأمة العربية لتجعل هذه الدول خاضعة لها، بل إنه أعلن في يوم من الأيام أن الجزائر قطعة من فرنسا، وكذلك صنعت إيطاليا في ليبيا، أما إنجلترا فإنها حاولت فرض اللغة الإنجليزية على مصر والعراق، ولكن حال الأزهر الشريف دون تمكينها من رغبتها.

بقلم: د . عبد المنعم يونس*
مصر

ولما لم يستطيعوا ذلك أشاعوا بين العرب في مصر مقولة تقول: إن العرب لا يستطيعون النهوض، والسير في ركب الحضارة إلا إذا تخلوا عن اللغة العربية، ولجؤوا إلى لغات إقليمية محلية كما حدث للغة اللاتينية، ولم يعلموا أن اللغة العربية ليست لغة حديث فقط، وإنما لغة القرآن الكريم، لغة التراث العربي الذي يشكل كيان الأمة العربية ووجدانها، إنها اللغة التي حملت القرآن الكريم، وانتشر بها وانتشرت به في شتى ربوع العالم.

ثم حدث أمر جد خطير، فقد ألف أحد قضاة محكمة الاستئناف في مصر من الإنجليز، وهو القاضي ولمور، كتابا أسماه لغة القاهرة، ووضع لها فيه قواعد، واقترح اتخاذها لغة للعمل والأدب، كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتنية [1] .

وجدت هذه المحاولات مقاومة ضارية، ووقف الكتاب الغيورون على لغتهم، والشعراء المؤمنون بتراثهم يفندون تلك الأفكار الخبيثة، التي حملتها فكرة اللغات الإقليمية، فكان أن أفرزت المعركة كثيرا من الكتب والقصائد منها قصيدة حافظ إبراهيم «اللغة العربية تنعي نفسها بين أبنائها» والتي يقول فيها[2] :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي
ونـاديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني
عقمت فلم أجزع لقول عداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي
رجالا، وأكفاء وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات
أيطربكم من جانب الغرب ناعب
ينادي بوأدي في ربيع حياتي؟!

وإذا كان حافظ إبراهيم قد لمس في قصيدته كثيرا من القضايا التي كانت شائعة في عصره من محاولات الاستعمار فرض لغته، ومن ضعف لغة الصحافة، ومن تلك النداءات التي تصدر من بعض الكتاب الذين يحاولون فرض اللغة العامية على الكتابة المصرية فإن العداء للفصحى لم ينشأ من المستعمر فحسب، وإنما نشأ أيضا من تلك الأبواق التي آمنت برأيه، واستأجرها لترويج فكره، حتى يأتي هذا الرأي من داخل العرب أنفسهم، فقد كتب أحد الكتاب في مجلة الهلال مقالا يدافع فيه عن اللهجات السوقية - يقول: « إنه يشتغل بضبط أحوالها، وتقييد شواردها، لاستخدامها في كتابة العلوم، وهو يؤكد في مقاله أن اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة هو من أهم أسباب تخلفنا الثقافي، وزعم أنه من الممكن اتخاذ أي لهجة عامية للكتابة كالمصرية أو الشامية، وأنها ستكون أسهل على سائر المتكلمين بالعربية على اختلاف لهجاتهم من العربية الفصيحة، وزعم أيضا أن تعلق المسلمين باللغة الفصيحة لا مبرر له، لأن هناك كثيرين - يعني من المسلمين - لا يتحدثون بالعربية، ولا يكتبون بها، ولأن اللغة التي يتكلمها المسلمون هي غير العربية الفصيحة على كل حال.. » وقال : « إن كل ما يطالب به هو وضع قواعد هذه اللغة التي يتكلمون بها فعلا وواقعا»، وختم مقاله بقوله : « وما أحرى أهل بلادنا أن ينشطوا من عقالهم طالبين التحرر من رق لغة صعبة المراس قد استنزفت أوقاتهم، وقوى عقولهم الثمينة، وهي مع ذلك لا تواليهم نفعا بل أصبحت ثقلا يؤخرهم عن الجري في مضمار التمدن وحاجزا يصدهم عن النجاح، ولي أمل أن أرى الجرائد العربية قد غيرت لغتها، وبالأخص

* أستاذ الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، ورئيس جمعية رابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة.

جريدة الهلال الغراء التي هي في مقدمتها، وهذا أعده أعظم خطوة نحو النجاح، وهو غاية أملي، ومنتهى رجائي » [٣].

وإذا كانت هذه المحاولات السافرة لم تؤت أكلها، لأن ثمرها نيئ، وأفكارها خبيثة مكشوفة قد تنبه لها العامة والخاصة، وكتب الغيورون على اللغة والتراث والمقدسات كتابات فاهمة واعية فندوا فيها أباطيل المبطلين، وأراجيف المرجفين، وبينوا للقارئ العربي ما تحمله هذه الأفكار من دسائس حاول المستعمر دسها في أذهان الكتاب، حتى يستطيع تحقيق غرضه والقضاء على تراث الأمة العربية والإسلامية.

كان من أهم هؤلاء الكتاب الذين تصدوا لهذه الحملة، ووقفوا كل جهدهم لتفنيد ادعاءاتها، وأعلنوا للناس جميعا في مختلف البلاد العربية والإسلامية أن تلك الخدعة لا ينبغي أن تنطلي عليهم لأن الاستعمار وأذنابه يحاولون هدم اللغة العربية، وتقويض أركانها، وإحداث هوة سحيقة بين الأمة العربية والقرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين « هو الكاتب الاسلامي العظيم مصطفى صادق الرافعي » الذي لم يأل جهدا في بيان ما تنطوي عليه هذه الدعوة ولم يقتصر جهده في ذلك على النثر، بل قال في ذلك شعرا ضمنه[٤] ديوانه سنعرض له عند حديثنا عن أوجه الدفاع عن اللغة العربية، والتصدي لأعدائها.

● لم يَأْلُ الرافعي جهداً في كشف ما تنطوي عليه الدعوة إلى العامية وفضح دوافع دعاتها.

دفاع الرافعي عن اللغة العربية:

أدرك الرافعي من أول وهلة أن الدفاع عن اللغة يتطلب منهجا منظما يحفظه لنفسه، حتى يكون دقيقا في رصد كل حدث يمكن أن يخدمه في دعوته، ويحتاج ذلك إلى ذاكرة لاقطة يرصد كل حركة وإن كانت صغيرة، فربما يقدم الحدث الصغير خيطا يصل بالباحث أو المفكر إلى علاج الظاهرة علاجا ناجعا.

فقد رأى مرة بعض الناس يتحدث إلى أحد الباشوات حديثا لم يعجبه، لأنه كان يحاول الحديث بلكنة غريبة ليست بالعربية الخالصة، ولا بالرطانة الأجنبية، وإنما خلط الرجل بين اللغة العربية، واللكنة الأجنبية، فهداه ذلك الموقف إلى أن يكتب مقالا لا عن تلك اللغة الخليط أو اللغة المرقعة كما سماها، وإنما كتب عن أولئك الذين يذهبون إلى البلاد الأوربية، ويعودون منها وقد لووا ألسنتهم، أو تعمدوا ذلك حتى يظهروا للناس أنهم جنس آخر، ثم خلص من ذلك إلى أن هؤلاء القوم أصيبوا بعقدة الخواجة كما كان يسميها القوم، وحاولوا أن يقولوا لمستمعيهم: إنهم قوم أخذوا حظا من بلاد أوربا. وما ذلك إلا لضعف هؤلاء القوم، وعدم إيمانهم بأن لغتهم تستطيع أن تؤدي ما تؤديه اللغات الأخرى، بل هي أعرق من هذه اللغات لأنها تحمل أمجاد الأمة ولا تستطيع لغة أخرى أن تقف معها في مضمار.

يقول الرافعي: « جاء حضرة صاحب السعادة فلان لزيارة الباشا وهو رجل مصري ولد في بعض القرى ما نعلم أن الله تعالى ميزه بجوهر غير الجوهر، ولا طبع غير الطبع، ولا تركيب غير التركيب، ولا زاد في دمه نقطة زهو، ولا وضعه موضع الوسط بين فئتين من الخليقة غير أنه زار فرنسا، وطاف بإنجلترا، وساح في إيطاليا، وعاج على ألمانيا، ولون نفسه ألوانا، فهو مصري ملون، ومن ثم كان لا يرى في بلاده وقومه إلا الفروق بين ما هنا وبين ما هناك ...» ثم يقول : .. هو كغيره من المترفين المنعمين، مصري المال فقط إذ كانت

أسبابهم ومستغلاتهم في مصر عربي الاسم لا غير ..» « وكغيره من هؤلاء المترفين المنعمين المفتونين بالمدنية، لكل منهم جنسه المصري، ولفكره جنس آخر» .

● يزري الرافعي بهؤلاء الذين يحاولون إظهار قدرتهم الكلامية بلغات غير لغاتهم وهم لا يكادون يجيدون لغتهم الأصلية.

هذه المقدمة التمهيدية في المقال ضرورية لأنه يضع توصيفا لهذا الذي سيتحدث عنه فيما بعد، وليعلم القارئ أن هذا الشخص ليس له ولاء لوطنه إلا أنه ينعم بخيراته، ويستغل موارده في ملذاته فهو عربي الاسم فقط، وهو يشترك مع كل هؤلاء المنعمين الذين يستغلون وطنهم في نهب أمواله، ثم بعد ذلك تراهم يتعالون على أبناء الوطن ممن هم سبب في هذا المال الوفير الذين ينعمون به .

.. ثم يأتي إلى لب الموضوع فيقول : « قال وكان حضرة صاحب السعادة يكلم الباشا بالعربية مرتفعا بها عن لغة الفصيح ارتفاعا منحطا .. نازلا بها عن لغة السوقة نزولا عاليا، يرتضح لكنة أعجمية، بينا هي في بعض الألفاظ جرس عال يطن، إذ هي في لفظ آخر صوت مريض يئن، إذا هي في كلمة ثالثة نغم موسيقي يرن، ورأيته يتكلف نسيان بعض الجمل العربية ليلوى لسانه بغيرها من الفرنسية لا تظرفا ولا تملحا ولا إظهارا لقدرة أو علم، ولكن استجابة للشعور الأجنبي الخفي المتمكن في نفسه، فكانت وطنية عقله تأبى إلا أن تكذب وطنية لسانه، وهو بأحدهما زائف على قومه، وبالأخرى زائف على غير قومه»[٥] .

وكلام الرافعي يقصد به أن يرسم صورة لهؤلاء الذين يحاولون إظهار قدرتهم الكلامية بلغات غير لغاتهم فهم لا يجيدون لغات قومهم، ولا لغات غير قومهم، ويضرب على ذلك مثلا : « فهو مرة صوته يشبه جرسا عاليا يطن، ومرة يشبه صوت مريض يئن، ومرة ثالثة يشبه نغما موسيقيا يرن، لأن صوته لم يكن على نسق واحد، ولا يتحدث لغة واحدة، حتى إن الباشا المخاطب عندما انصرف هذا الرجل قال عنه : « أف لهذا وأمثال هذا، أف لهم، ولما يصنعون، إن هذا الكبير يلقبونه « حضرة صاحب السعادة» ولأشرف منه والله رجل قروي ساذج لقبه حضرة صاحب الجاموسة .. نعم إنه الفلاح عندنا جاهل علم، ولكن هذا أقبح منه جهلا فإنه جاهل وطنية» ثم يردف قائلا: « ثم إن الجاموسة وصاحبها عاملان دائبان مخلصان للوطن، فما هو عمل حضرة صاحب (اللسان المرقع) هذا؟ إن عمله أن يعلن برطانته الأجنبية أن لغة وطنه ذليلة مهينة، وأنه متجرد من الروح السياسي للغة قومه .. إذ لا يظهر الروح السياسي للغة ما إلا في الحرص عليها، وتقديمها على سواها » [٦] .

ثم يعلق الرافعي على ذلك بقوله : « كان الواجب على مثل هذا ألا يتكلم في بلاده إلا بلغته،

وكان الذي هو أوجب أن يتعصب لها على كل لغة تزاحمها في أرضه، فترك هذا وهذا وكان هو المزاحم بنفسه، فهو على أنه حضرة صاحب سعادة « لا ينزل نفسه من اللغة القومية إلا منزلة خادم أجنبي في حانة» [٧] .

بمثل هذه اللغة القاسية كان الرافعي يواجه هؤلاء الذين يستخفون بلغتهم، وينزعون إلى لغات أخرى يظنون أنهم بهذا يتباهون على قومهم، وعلى ما ألفوه من حديث بلغة عربية أصيلة، إنه ينحو عليهم باللائمة، لأنهم ما زالوا مرتبطين بما تركه الاستبداد والحمق في زمن الحكم التركي، وكأن الأجنبية علامة الحكم والسلطة واحتقار الشعب.

ويستمر مصطفى صادق الرافعي في تصنيف هؤلاء الأدعياء إلى طبقات: واحدة تتعلق بعصر الاستبداد، وأخرى تصنع نفاقا للاستعمار، فهم يميلون إلى الخضوع والذل السياسي في عهد الاحتلال الإنجليزي، فاللغة الأجنبية بينهم تشريف واعتبار، كأنهم بها من غير الشعب المحكوم الذي فقد السلطة، وثالثة تصنع ذلك، لأنهم يريدون به عيب اللغة العربية وتهجينها، لأنهم لا يحبون الدين الإسلامي الذي جعل هذه اللغة حكومة باقية في بلادهم مع كل حكومة، وفوق كل حكومة « وهم يزدرون هذا الدين ويسقطون عن أنفسهم كل واجباته .. وهؤلاء قد خلطوا عملا صالحا، وآخر سيئا، إذ يغلون في مصريتهم غلوا قبيحا ينتهي بهم إلى سفه الآراء، وخفة الأحلام، وطيش النزعات فيما يتصل بالدين الإسلامي وآدابه، ولغته، وما أرى الواحد منهم إلا قد غطى وصفه من حيث هو رفيع على وصفه من حيث هو عالم أو أديب أو ما شاء . إن هذا المقت ﴿ كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ﴾[٨] .

هذا جانب من حملة الأديب الكبير الرافعي على أولئك الذين هانوا على أنفسهم فلجؤوا إلى لغة الأجنبي يتشدقون بها، وكأنهم لا يعلمون أنهم بصنيعهم هذا إنما يحطون من أنفسهم،

● ما ذلت لغة شعب إلا ذل، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار.

ويقللون من شأنهم، فالأصالة تعني أن يحرص الإنسان على لغته، ويضعها في موضعها اللائق بها بين لغات العالم، وهم لا يعلمون أيضا أن من هانت عليه لغته التي تشكل تراثه وأمجاده سيكون هو بالتبعية هينا على من يتحدث إليهم، لأنهم والأمر كذلك سينظرون إليه نظرة ازدراء واحتقار فهم يعلمون تماما أنه يتملقهم ويعمل على إرضائهم، وهو في دخيلة نفسه يرفضهم، لأنهم يحتلون بلاده، بل إن هذا الصنف من الناس لا يثق به أحد.

أما الجانب الثاني فقد جاء في مقال بعنوان : « اللغة والدين والعادات» باعتبارها من مقومات الاستقلال، وسأقف عند الجزئية الأولى، وهي جزئية اللغة، لأن الرافعي ألح عليها باعتبارها المقوم الأساسي من مقومات الاستقلال، ثم إنه حلل هذه الجزئية تحليلا رائدا أبان فيه أن اللغة تعني كل المقومات السابقة، بل إنها تعني قومية الفكر، وقومية العادات والتقاليد، يقول الرافعي : « أما اللغة فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها، وجودا متميزا قائما بخصائصه، فهي قومية الفكر، تتحد بها الأمة في صور التفكير، وأساليب أخذ المعنى من المادة، والدقة في تركيب اللغة دليل على دقة الملكات في أهلها، وعمقها في عمق الروح، ودليل الحس على ميل الأمة إلى التفكير، والبحث في الأسباب والعلل، وكثرة مشتقاتها برهان على نزعة الحرية، وطماحها، فإن روح الاستبداد لا يتسع، ورأيه

لزوم الكلمة والكلمات القليلة».

ثم يقول : « وإذا كانت اللغة بهذه المنزلة، وكانت أمتها حريصة عليها، ناهضة بها، متسعة فيها، مكبرة شأنها، فما يأتي ذلك إلا من روح التسلط في شعبها، والمطابقة بين طبيعته، وعمل طبيعته وكونه سيد أمره، ومحقق وجوده، ومستعمل قوته، والآخذ بحقه، فأما إذا كان منه التراخي والإهمال وترك اللغة للطبيعة السوقية وإصغار أمرها، وتهوين خطرها، وإيثار غيرها بالحب والإكبار فهذا شعب خادم لا مخدوم، تابع لا متبوع، ضعيف عن تكاليف السيادة لا يطيق أن يحمل عظمة ميراثه، مجتزئ ببعض حقه، مكتف بضرورات العيش، يوضع لحكمه القانون الذي أكثره للحرمان، وأقله للفائدة التي هي كالحرمان».

● إن الأمة الحريصة على لغتها، الناهضة بها المعتزة بها ،المُكْبِرة شأنها، هي الأمة التي لديها نزعة المقاومة والغلبة والاعتزاز بتراثها وفكرها.

« وما ذلت لغة شعب إلا ذل، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار، ومن هنا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضا على الأمة المستعمرة، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيته، عليهم أحكاما ثلاثة في عمل واحد : أما الأول فحبس لغتهم في لغته سجنا مؤبدا، وأما الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل محوا ونسيانا، وأما الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تبع» .

والذين يتعلقون اللغات الأجنبية ينزعون إلى أهلها بطبيعة هذا التعلق إن لم تكن عصبيتهم للغتهم مستحكمة من قبل الدين أو القومية، فتراهم إذا وهت فيهم هذه العصبية يخجلون من قوميتهم، ويتبرؤون من سلفهم، وينسلخون من تاريخهم، وتقوم بأنفسهم الكراهية للغتهم، وآداب لغتهم، ولقومهم وأشياء قومهم، فلا يستطيع وطنهم أن يوحي إليهم أسرار روحه، إذا لا يوافق منهم استجابة في الطبيعة، وينقادون بالحب لغيره، فيتجاوزونه، وهم فيه، ويرثون دماءهم من أهلهم، ثم تكون العواطف في هذه الدماء للأجنبي، ومن ثم تصبح عندهم قيمة الأشياء بمصدرها لا بنفسها، وبالخيال المتوهم فيها لا بالحقيقة التي تحملها، فيكون شيء الأجنبي في مذهبهم أجمل وأثمن، لأن إليه الميل وفيه الإكبار والإعظام، وقد يكون الوطني مثله أو أجمل منه، بيد أنه فقد الميل، فضعفت صلته بالنفس، فعادت كل مميزاته لا تميزه»[٩].

بمثل هذه الكلمات تحدث الرافعي عن اللغة، فهو يمثل صيحة في وجه الاستعمار الذي حاول جاهدا صرف الشعوب المستعمرة عن لغتها، حتى يتمكن من السيطرة عليها، واستمرار وجوده فيها، فالشعوب التي تمكن المستعمرين من لغتها، فتنصرف عنها، وتتبع لغة المستعمر شعوب حكمت على شخصيتها بالفناء، وعلى وجودها بالعدم، لأنها ستكون تابعة للمستعمر سائرة على دربه وهواه.

وإذا حاولنا تحليل هذه الأفكار، وما أثاره الكاتب من قضايا جانبية فإننا نرى أن الكاتب ركز على أن اللغة هي صورة حية لوجود الأمة في أفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها، فاللغة تشترك فيها الأمة، لأنها تدل على قومية الفكر، وتتحد بها الأمة اتحادا فكريا . ودقة التعبير اللغوي دليل على قوة ملكات الأمة ومواهبها . وعمق اللغة دليل على عمق روح الأمة، وميلها إلى التفكير والبحث في الأسباب والعلل . وإذا استعملت الأمة اللغة استعمالا قويا، فأكثرت من المشتقات، وتصرفت

في المترادفات فإن ذلك دليل حي على نزعة الحرية لدى الأمة وطموحها إلى الاستقلال.

ثم حاول الكاتب أن يبين لنا أن الأمة الحريصة على لغتها الناهضة بها المتسعة فيها المكبرة شأنها هي الأمة التي لديها نزعة المقاومة والغلبة، وأن شعبها هو الشعب المطابق بين طبيعته وعمل طبيعته، فهو سيد أمره، محقق وجوده، مستعمل قوته، آخذ بحقه، وإذا أهمل شعب لغته، وتراخى في استعمالها، وترك اللغة العامية تسيطر عليها، وآثر غيرها عليها فهذا شعب ضعيف في تكوينه فهو خادم لا مخدوم، تابع لا متبوع، ضعيف من تكاليف السيادة، ولا يطيق أن يحمل عظمة ميراثه، فهو شعب أشبه بمجموعات العبيد، لا يقدرون على الاستقلال بأنفسهم، يكتفون بضرورات العيش يوضع لهم القانون الذي يحكمهم حكما أكثره الحرمان، وأقله الفائدة التي هي كالحرمان.

أما الفكرة الثانية، فقد حاول الكاتب فيها بيان أمر هام، وهو أن لغة الأمم المستعمرة تكون الهدف لهؤلاء المستعمرين، فقد علم الاستعمار في النصف الأول من القرن العشرين أنه لا بقاء له بين هذه الأمم إلا بالسيطرة على لغتها، فأضحت لغة الأمم هي الهدف الأول للمستعمرين، فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته، فمنشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله، فإذا انقطع الشعب من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه، ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ لا صورة محققة في وجوده، ثم ضرب الكاتب مثلا بأن أبناء الأب الواحد، إذا تكلم كل واحد منهم لغة أصبحوا أبناء ثلاثة آباء لا أبناء أب واحد، وهو بذلك يضرب مثلا للشعوب التي تربطها روابط أصيلة، ثم يجعلهم الاستعمار يتكلمون لغات غير لغتهم الأصيلة.

وذلة الأمة تأتي من تركها لغتها، ومن هنا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضا على الأمة المستعمرة، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم فيها، فهو كما يقول - الرافعي - يحكم عليهم أحكاما ثلاثة في عمل واحد، الأول حبس لغتهم في لغته سجنا مؤبدا، والثاني الحكم على ماضيهم بالقتل محوا، ونسيانا، والثالث تقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تبع.

أما الفكرة الثالثة فيركز فيها الكاتب على أولئك الذين يعجبون بلغة المستعمر، فهم بطبيعة الحال سينزعون إلى أهلها، فإذا وهنت عصبيتهم إلى لغتهم خجلوا من قوميتهم وتبرؤوا من سلفهم، وانسلخوا من تاريخهم، وقامت بأنفسهم الكراهة للغتهم وآداب لغتهم ولقومهم وأشياء قومهم.

ثم حاول الكاتب أن يبين لنا أنهم والحالة هذه سيبتعدون عن وطنهم حتى وهم فيه، لأن عواطفهم ستكون مع الأجنبي، فيكون شيء الأجنبي في مذهبهم أجمل وأثمن، وقد يكون الشيء الوطني مثله أو أجمل منه ولكنهم فقدوا الميل إليه.

ثم تأتي الفكرة الرابعة تبين لنا أن اللغات تتنازع القومية، لأنها احتلال عقلي للشعوب التي ضعفت عصبيتها، فإذا هانت اللغة القومية على أهلها أثرت اللغة الأجنبية في الخلق القومي، وإذا قويت العصبية، وعزت اللغة فلن تكون اللغات الأجنبية إلا خادمة يرتفق بها، ولن يعطي للأجنبي إلا ما يستحقه، وبذلك يصبح كل شيء أجنبي قد خضع لقوة قاهرة غالبة هي قوة الإيمان بالمجد الوطني، واستقلال الوطن.

لقد كانت مصر كغيرها من البلاد العربية والإسلامية محطا لأنظار المستعمر، وهدفا من أهدافه التي كان يسعى جاهدا في النصف الأول من القرن العشرين، كي يجعلها تحت سلطانه. ينفذ من خلالها لتحقيق مآربه، وطموحاته، وقد علم الإنجليز يقينا أن الاستعمار العسكري سيتقلص حتما، فليحاول فرض لغته على المصريين بجعلها لغة الدواوين والمدارس والثقافة والعلوم، فجاءت صيحات الكتاب المصريين الغيورين على لغتهم تحذر من هذا الخطر الداهم،

وتكشف للناس تلك اللعبة الخسيسة التي يريد المستعمر الترويج لها في بلادنا، ويبين لهم ما يعنيه التمسك بلغتهم، فهي لغة الدين والعروبة، وأمجاد الماضي.

ولعل هذه الصحيحة يحس بها كل إنسان في كل مكان، وهو بهذا يأتي بأفكار عالمية لا تحدها بيئته، ولا تقف أمامها أسوار الوطن.

« سيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس : هو الحكمة مصوغة في أجمل قالب من البيان».

مصطفى كامل

قصيدة «اللغة العربية والشرق»

كان الغرض أن أقتصر على بعض ما كتبه الرافعي من نثر الرافعي حول دفاعه عن اللغة العربية، ولكنني رأيت أن أعرج في أسطر قليلة على قصيدة الرافعي ... « اللغة العربية والشرق» والتي جاءت في ديوان الرافعي، الجزء الثاني، وهي قصيدة يبكي فيها الرافعي ما آلت إليه اللغة العربية، وعزا ذلك إلى كيد أبنائها لها، إنهم لم يراعوا فيها ما أرضعتهم إياه، وقد يجني النسب كثيرا من الأحزان على من ينتسب إليه حتى إنه بدأ القصيدة بقوله:

أمٌّ يكيد لها من نسلها العقب
ولا نقيصة إلا ما جنى النسبُ
كانت لهم سببا في كل مكرمة
وهم لنكبتها من دهرها سببُ
لا عيب في العرب العرباء إن نطقوا
بين الأعاجم إلا أبهم العربُ

فقد صور الرافعي إهمال العرب لغتهم الأم التي يكيد لها أبناؤها، وهذا منتهى العقوق التي يمكن تصوره لأن هذه الأم كانت سببا في كل مكرمة نالها هؤلاء العرب، فقد وصلت لغتهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، ثم هم بعد كل هذا الذي قدمته لهم أمهم يقلبون لها ظهر المجن، فتراهم إن نطقوا نطقوا بلغة لا يكاد يعرفها غيرهم، والرافعي يشير بذلك إلى اللغة العامية التي لا تعرف إلا بين الناطقين بها، أما اللغة العربية فإن الأمة العربية كلها تشترك فيها، وتتبين ملامحها.

ثم أخذ الرافعي يتحدث عن تاريخ اللغة العربية، وكيف أنها استمرت طوال الدهر ناصعة كالبدر حتى طمست السحب من نوره، ثم حدث لها ما حدث في تاريخها الحديث حتى قال:

سلوا الكواكب كم جيل تداولها
ولم تزل نيرات هذه الشهبُ
وسائلوا الناس كم في الأرض من لغة
قديمة جددت من زهوها الحقبُ
ونحن في عجب يلهو الزمان بنا
لم نعتبر، ولبئس الشيمة العجبُ

ثم أخذ يوجه حملته على الغرب الذي حاول طمس اللغة العربية، والدعوة إلى لغته التي أراد بها في صفوف الأمة، والدعوة إليها فقال:

أنترك الغرب يلهينا بزخرفه
ومشرق الشمس يبكينا، وننتحبُ
وعندنا نَهَرٌ عذب لشاربه
فكيف نتركه في البحر ينسربُ
وأيما لغة تنسي امرأ لغة
فإنها لعنة من فيه تنسكبُ

إنها صيحة قوية يرسلها الرافعي، حتى يدرك الجميع أن اللغة العربية ما زالت تعطي، وتقدم للجميع ما يمكن أن يجعلهم يفخرون بها، فهي كالنهر العذب الذي يجب علينا أن نحافظ عليه، ولا نتركه يضيع في بحر اللغات الأخرى، ثم أرسل

حكمته الرائعة في قوله :

وأيما لغة تنسي امرأ لغة
فإنها لعنة من فيه تنسكبُ

ثم أنحى باللائمة على لغة القصور التي يتشدق بها ساكنو القصور، لأنهم يحاولون أن يلووا بألسنتهم بكلمات أجنبية، حتى يظهروا للناس أنهم على علم باللغات الأجنبية، حتى يقول:

أرى نفوس الورى شتى وقيمتها
عندي تأثرها لا العز والرتبُ
ألم تر الحطب استعلى فصار لظى
لما تأثر من مس اللظى الحطبُ
فهل نضيع ما أبقى الزمان لنا
وننفض الكف لا مجد ولا حسبُ

ويستمر الرافعي في حديثه عن اللغة العربية، ونعيه على قومها الذين أهملوها، ونزعوا إلى اللغات الأخرى، فيختتم قصيدته بقوله:

هيهات ينفعنا هذا الصباح فما
يجدي الجبانَ إذا روَّعْتَه الصخبُ
ومن يكن عاجزا عن دفع نائبة
فقِصر ذلك إن تلقاه يحتسبُ
إذا اللغات ازدهت يوما فقد ضمنت
للعرب أي فخار بينها الكتبُ
وفي المعادن ما يمضي برونقه
يد الصدا غير أن لا يصدأ الذهبُ

هذه نظرات سريعة في قصيدة الرافعي التي تحتاج إلى وقفات متأنية، حتى يتضح من خلالها مدى ما يرمي إليه الرافعي، ومدى ما وفق فيه، أو أخفق، وكذلك تلك اللغة التي عالج بها الرافعي قصيدته، وتحلية هذا الأسلوب بالحكمة التي أتت في مكانها، ولم تكن مستجلبة، أو مستكرهة.

إن الرافعي بكل المقاييس كاتب غيور على لغته، غيور على دينه، غيور على عروبته، ومن يؤتى هذه المزايا جدير بأن يعد من الصفوة الذين يحتفى بهم، ويعطون حقهم من التكريم والإكبار .

رحم الله الرافعي وجزاه عن العروبة والإسلام خير الجزاء. ■

الهوامش:

(١) د . محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ص٣٤٣ ، مكتبة مصر ومطبعتها ، ١٩٨٠م.
(٢) ديوان حافظ إبراهيم .
(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، مرجع سابق.
(٤) ديوان الرافعي ، شرح محمد كامل الرافعي ، مكتبة الإيمان بالمنصورة ، أمام جامعة الأزهر .
(٥) مصطفى صادق الرافعي ، وحي القلم ، ج٢ ، ص٢٩٦ ، دار المعارف ، ط٢ ، ١٩٨٢م .
(٦) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٢٩٧ .
(٧) المرجع السابق نفسه .
(٨) المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٢٩٨ .
(٩) المرجع السابق ، ج٣ ، ص٣٢ - ٣٥ .

يا نفس ويحك أرضى الجد منك فتى ... ماضي العزيمة وثاب فمقتحم
لا تعرضي ليَ لذات الهوى أبدا ... ما للهوى في لساني "لا" ولا "نعم"
كأس المدامة في بعض الخطاب فمر ... ومدفع الحرب في بعض الكلام فم
ما لذتي أنا إلا أن أكون فتى ... كما يرفرف في أعلى الذرى علم
كأنه صفحة منشورة قرأت ... فيها ضمائرها العلوية الأمم
سلم وحرب، له في سلمها عظم ... يخشونه، وله في حربها عظم

مصطفى صادق الرافعي